المبحث الأول

عصر الباقلاني

أ – الحالة السياسية

عاش أبو بكر في القرن الرابع الهجري الذي انقسمت فيه الدولة الإسلامية المترامية الأطراف إلى أجزاء[٣]. وعادت المملكة إلى ما كانت عليه قبل الفتح الإسلامي: ونشأت فيها دول صغيرة وإمارات منفصل بعضها عن بعض وقد تم هذا الانقسام حوالي سنة ٣٢٤هـ. بعد أن كانت دولة واحدة تجمع شمل المسلمين وترفع راية الإسلام وتتخذ لها قاعدة في مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم[٤].

وشرع المؤرخون يبينون الأجزاء التي آلت إليها المملكة الإسلامية كأنهم يصفون حسابها. وهم يعتمدون في إحصائهم على مصدر واحد. كما يدل على ذلك ترتيبهم لهذا الأجزاء، تغلب كل رئيس على ناحية وانفرد بها فصارت فارس والريّ وأصبهان والجبل في أيدي بني بويه. وكرمان في يد محمد بني إلياس. والموصل وديار ربيعة وديار بكر في أيدي بني حمدان، وأصبحت مصر والشام في يد محمد بن طغج الأخشيدي. والمغرب وإفريقية في يد الفاطميين والأندلس في يد عبد الرحمن الناصر الأموي، وخرسان في يد نصر بن أحمد الساماني، والأهواز وواسط والبصرة في يد البريديين واليمامة والبحرين في يد ابي طاهر القرمطي، وطبرستان وجرجان في يد الديلم، ولم يبق للخليفة إلا السلطة الدينية متمثلة بذكر اسمه في الخطبة.للتظاهر على الخلافة أمام الجمهور[٥]. ويشبه المسعودي في عام ٣٣٢هـ

---

[٣] ابن مسكويه، تجارب الأمم، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٩١٣م. ج٥ ص ٥٥٣.

[٤] محمد الخضري، تاريخ الأمم الإسلامية، مصر: المكتبة التجارية الكبرى، ص ٣٨٠.

[٥] متز، الحضارة الإسلامية القرن الهجري، بيروت: دار الكتاب العربي، ج١، ص٢١٩.

حالة العالم الإسلامي بعد هذا الانقسام وتغلب كل واحد منهم على الصقع الذي هو فيه بفضل ملوك الطوائف بعد موت الاسكندر[٦].

على أن أصحاب الأطراف أو ملوك الطوائف كانوا يعترفون بالسيادة العليا للدولة ويقدمون للخليفة الدعاء في المساجد ويشترون منه ألقابهم ويرسلون إليه الهدايا في كل عام ومن ذلك أنه لما تم لعضد الدولة بن بويه فتح كرمان في سنة ٣٥٧هـ أنفذ إليه من الحضرة ببغداد عهد الخليفة وخلعه والعقد على أعمال كرمان كلها[٧].

كانت من أهم العوامل التي أدت تمزق الدولة الإسلامية وتفتيت وحدتها والإضطربات السياسية التي شهدتها الدولة هو ضعف الخلفاء في العصر العباسي الثاني وميلهم إلى شهواتهم وابتعادهم عن العدالة الإسلامية التي تجعل سكان البلاد الإسلامية كتلة واحدة متماسكة تحمي البلاد.

وفي هذا العصر الذي نؤرخه ظهر في المملكة الإسلامية عنصر كبير بجانب العنصرين العظيمين- العرب والفرس- وهو عنصر الأتراك وكان له أثر كبير في تاريخ الأمة الإسلامية وحياتها السياسية والإجتماعية ذلك أن المعتصم الذي تولى الخلافة سنة ٢١٨هـ استقدم سنة ٢٢٠هـ قوما من بخارى وسمرقند وفرغانة وأشرنة وغيرها من البلاد التي نسميها "تركستان" وما وراء النهر، "اشتراهم وبذل فيهم الأموال وألبسهم أنواع الديباج ومناطق الذهب وأمعن في شرائهم حتى بلغت عدتهم ثمانية آلاف ملوك وقيل ثمانية عشر ألفا" وهو الأشهر[٨].

لقد كان الفرس في العصر العباسي الأول هم عماد الدولة وبيدهم تصريف الأمور وشئونها وكان الخليفة يعتمد عليهم في أهم الأمور وهم يحتفظون له بمظهر الأبهة

---

[٦] أبو الحسن المسعودي، مروج الذهب، القاهرة: دار الرجاء، ج١، ص٣٠٦.

[٧] ابن مسكويه، تجارب الأمم، ج٦، ص٣٢٣. نجوم الساهرة،ج٢، ص٢٣٢.

[٨] أحمد أمين، ظهر الإسلام، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٥م، ج١، ص١٠.

والجلالة ثم ينشرون سلطانهم فإذا حسب الخليفة منهم استبدادا أوقع بهم كما فعل الرشيد بالبرامكة والمأمون بابن سهل ولكنهم سرعان ما يستردون نفوذهم[٩]. وظل نفوذ الفرس هكذا في الدولة العباسية إلى أن جاء المعتصم الذي تولى الخلافة سنة ٢١٨هـ فراى من استبداد الفرس وازدياد نفوذهم ما يجعله يفكر أن يستعين بقوم آخر فهداه تفكيره إلى الترك فإذا هو يتجه ناحية الأتراك فستقدم سنة ٢٢٠ه/ قوما من بخارى وسمرقند وفرغانة والشروسنة وغيرها من البلاد التي نسميها "تركستان" وما وراء النهر اشتراهم وبذل فيهم الأموال وألبسهم أنواع الديباج ومناطق الذهب وأمعن في شرائهم حتى بلغت عدتهم ثمانية الآف مملوك وقيل ثمانية عشر ألفا وهو الأشهر. لقد استكثر المعتصم من الأتراك حتى ملأوا بغداد ومكن لهم في الأرض حتى أصبحوا مصدر قلق واضطراب يقول أحمد أمين: انهم كانوا أول أمرهم قوة للدولة وبسببهم على الأكثر يرجع انتصارهم على الروم في موقعة عمورية سنة ٢٢٣هـ فكانت القيادة العليا في يد الأتراك وعلى رأسهم أشناس[١٠].

وكان المعتصم في ذلك كالمستجير من الرمضاء بالنار إذ لم يلبث الأتراك أن وجدوها فرصة مواتية للتدخل في أمور السياسية بعد أن كانوا جنودا يحرصون قصر الخليفة[١١]. وبدأ المعتصم نفسه يسند إليهم أعلى المناصب ويقلدهم حكم الولايات ويؤثرهم على العرب حتى آثارهم عليه فهجاه دعبل الخزاعي لذلك الإيثار فقال:

لقد ضاع أمر الناس حيث يسوسهم ... وصيف وأشناس وقد عظم الخطب
وأني لأرجو أن ترى من مغيبها ... مطلع شمس قد غص بها الشرب
وهمك تركي عليه مهانة ... فأنت له أم وأنت له أب[١٢]

---

[٩] ابن مسكويه، تجارب الأمم ج٦،ص٣٢٣.

[١٠] ظهر الإسلام، ج١، ص٥.

[١١] د. حسن إبراهيم، النظم الإسلامية. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ص٥٣.

[١٢] ظهر الإسلام،ص٦، مرجع سابق.

عندما أحس المعتصم من الأتراك زيادة نفوذهم وإقحام أنفسهم في سياسة الدولة وشغبهم على الرعية بين سر من رأى وسكنها.

ثم مضى القرن الثالث وأقبل الرابع وجاء الراضي بالله أبو العباس أحمد بن المقتدر ٣٢٢هـ/٣٢٩هـ ورأى ما أصاب الخلافة على يد سلفه وأراد أن يرد عليها هيبتها واخترع منصب "أمير الأمراء" ليحد نفوذ الأمراء لم تستفد الخلافة العباسية فائدة من إمرة الأمراء الذي أدخله الراضي بل على العكس من ذلك زادت أحوالها سوءا.

وأخذت النواحي تستقل والأطراف تنقص وملك الدولة يتقلص والدويلات تقوم على حفافها غربا وشرقا والحكام يسرحون انفصالهم عن الخلافة وكان من بين الدويلات التي انفصلت دولة بني بويه وقد كانت الأحوال في بغداد قد انتهت إلى حالة من الفوضى وضاق الناس بما كانوا يلقون علي أيدي الأتراك من نهب الأموال وإثارة الرعب والفزع في نفوس الناس وكانوا يتمنون زوال هذه المحن عنهم[١٣].

كل ذلك مهد أمام البويهيين ليعلنوا قيام دولتهم تلك الدولة التي اتصل بها أبو بكر الباقلاني وأدى لها في عهد عضد الدولة وابنه صمام الدولة ما أدى من مناظراته المشهورة في مجلس عضد الدولة[١٤].

والبويهيون نسبة إلى بويه الذي نشأ في إقليم مازندران وكان بويه قائد قبيلة تركية دخلت في خدمة السمانيين تارة وفي خدمة الإسماعليين تارة أخرى وبعد أن تخلى بنو بويه من تبعية هؤلاء وأولئك ساروا نحو الجنوب واحتلوا فارس وانتقلوا بها

---

[١٣] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت: دار صادر، ج٥، ص٣٤٢. الفخر لأداب السلطانية، ص١٨١-٢٥١.

[١٤] بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، بيروت: دار العلمي للملايين، ج٢، ص ١٤٠، التمهيد، أبوبكر الباقلاني

مستقلين في ذلك ضعف الخلافة العباسية واضطراب شئوونها لقد اضطر الخليفة المتقي لله أبو إسحاق إبراهيم المقدر إلى الفرار من بغداد[١٥].

فلما جاء المستكفي بالله لم يكن أحسن من سلفه حظا فأغير عليه وفر، ولكنه اعتقل وحمل إلى معز الدولة بن بويه وحبس فيها وخلع من الخلافة وسملت عيناه وكان معز الدولة البويهي شنيعا ومع ذلك لم يفكر في أن يعين خليفة من العلويين لأنه كان يخشى أن يثير بذلك ثائرة أهل السنة لا في بغداد وحدها ولكن في جميع الولايات الإسلامية[١٦].

ولما كانت سنة ٣٦٤هـ سار عضد الدولة بعساكر فارس إلى بغداد لما أتاه مكاتبات بختيار للمسير نحوها فلما قارب مدينة واسط رجع أفتكين والأتراك إلى بغداد وسار عضد الدولة من الجانب الشرقي وأمر بختيار أن يسير في الجانب الغربي إلى نحو بغداد[١٧]. وخرجت الأتراك من بغداد وقاتلوا عضد الدولة فانهزمت الأتراك وقتل منهم خلق كثير وكانت الواقعة بينهم سنة ٣٦٤هـ وفي النهاية انتصر عضد الدولة. وسار عضد الدولة فدخل بغداد وكان الأتراك قد أخذوا الخليفة معهم فرده عضد الدولة إلى بغداد فوصل الخليفة إلى بغداد واستقر بذلك الأمر لعضد الدولة[١٨].

وفي سنة ٣٦٨هـ أمر الطائع أن يضرب الطبل على باب عضد الدولة في وقت الصبح والمغرب والعشاء وأن يخطب له على منابر الحضرة وزاد في ألقابه. وفي مقابل ذلك دخل عضد الدولة على الطائع وقبل الأرض بين يديه ثم قبل رجله وهنا أعلن الطائع إسناد الأمور كلها إلى عضد الدولة فقال له: "قد رأيت أن أفوض

---

[١٥] نفس المصدر، ص٢٧-٢٩.

[١٦] نفس المصدر، ص٢٩.

[١٧] نفس المصدر، ج٢،ص١١٤.

[١٨] محمد أمين، ظهر الإسلام، ج١،ص٥٢.

إليك ما وكل الله إليّ من أمور الرعية في شرق الأرض وغربها وتدبيرها في جميع جهاتها سوى خاصتي وأسبابي" فقال عضد الدولة: "يعينني الله على طاعة مولانا أمير المؤمنين وخدمته"[١٩]. وقد جرى خلاف بين الطائع وعضد الدولة فقطع عضد الدولة الخطبة للطائع في بغداد وغيرها واستمر ذلك نحو شهرين ثم سوى الخلاف وأعيدت الخطبة للطائع. بل طمع عضد الدولة الخلافة لنسله فزوج الطائع ابنته وعقد العقد بحضرة الطائع لله ومشهد من أعيان الدولة ويريد عضد الدولة بذلك أن يرزق الطائع ولدا من ابنته فيولي العهد وتصير الخلافة في بيت بني بويه ويصير الملك والخلافة في الدولة الديلمية.

ورغم ذلك تنازلات لم يرض البويهيين فدبر بهاء الدولة البويهي خلع الطائع وأخذ أمواله وحملوه بالمكيدة على أن يترل لهم عن كل شئ[٢٠]. وهكذا اقتطعت دولة بني بويه من الدولة العباسية الكبرى نتيجة لضعفها وانحلال الأمر فيها وضعف الخلافة وازدياد نفوذ العناصر الخارجية مثل الفرس أولا ثم الأتراك ثانيا. على أن التحاسد قام بين الدويلات التي انفصلت فهذا ناصر الدولة بن حمدان يسير جيشا لقتال البويهيين ويدوم القتال بينهم طويلا. ويتقدم الحمدانيون تجاه بغداد حتى استولوا على جانبها الشرقي ولكنهم ينهزمون في آخر لحظة ويعود ناصر الدولة إلى مقره[٢١].

وصفوة القول أن حالة الدولة العباسية أصبحت من الضعف والانحلال حتى لم يتمكن من أن يدفع أرزاق الجند ولا أن يحصل ما يكفي نفقاته الشخصية. تلك كانت حالة السياسية في الفترة التي عاش فيها القاضي أبو بكر الباقلاني – أحداث وفتن والاضطرابات السياسية تشهده الدولة الإسلامية في كل انحائها.

---

[١٩] النظم الإسلامية،ص٦٤، المرجع السابق. تاريخ الخلفاء، السيوطي،١٦٤.

[٢٠] محمد أمين، ضحى الإسلام، ص٥٢.

[٢١] نظم الإسلامية،ص٥٩.

ب – الحالة العلمية في العصر العباسي الثاني

يبدو أول الأمر أن الاضطراب السياسي الذي أصاب به الخلاف العباسية في القرن الرابع الهجري كان جديرا أن يلحق معه اضطراب الحياة العلمية والفكرية وتدهورها وتخذلها لكن واقع الأمر كان على عكس ذلك فإن استقلال الأطراف وقيام الدويلات قد خلق بيئات علمية جديدة في العالم الإسلامي بعد أن كانت بغداد تكاد تكون البيئة الوحيدة للحياة العلمية والفكرية والثقافية إلا أن هذا الاضطراب والانقسام السياسي بين الأقطار الإسلامية لم يضعف من النهضة العلمية والثقافية إن لم يعطها قوة في مجال العلمي فقد حاول كل أمير أن يكون في بلاطه عدد كمن المفكرين من كبار العلماء وإذا استطاع أحد هؤلاء أن يجذب إلى قصره عالما أو أديبا أو شاعرا.

إلا أن هذا الانقسام والاضطراب السياسي بين الأقطار الإسلامية لم يضعف من النهضة الثقافية والأدبية والفكرية إن لم يزودها قوة وقد حرص كل أمير أن يكون في قصره عدد من العلماء وأن يجذب إلى داره شاعرا أو أديبا معروفا ومن هنا نجد اهتمام الأمير عضد الدولة على استقدام القاضي أبو بكر الباقلاني إلى شيراز حتى يمثل مذهب أهل السنة في مجالسه العلمية التي كانت تجمع رؤساء المذاهب الإسلامية ومن ناحية أخرى وبسبب تشجيع الأمراء للعلم وجدنا الكتابة تبلغ غايتها في هذه الحقبة التي عاصرها القاضي أبو بكر الباقلاني ويقل المروم أحمد أمين: " أرى أن العلم والأدب رقيا عما كانا عليه قبل وإنه لما يؤثر فيهما كثير ضعف خلفاء بغداد ذلك أن حركة الترجمة التي نقلت ذخائر الأمم وخصوصا الأمة اليونانية وضعت أمام أعين المسلمين ثروة علمية هائلة باللسان العربي فكانت الخطوة الثانية أن تتوجه إليها الأفكار العربية تفهمها وتمضمها وتشرحها وتبتكر وتزيد فيها"[٢٢] .

---

[٢٢] ظهر الإسلام،ص٩٤.

وصفوة القول فإنه لم يعرف المسلمون عصرا كالقرن الرابع الهجري تناقضت فيه حياتهم أشد التناقض فسدت الحياة السياسية ولكن نهضت الحياة العلمية والفكرية. يقول: ديبور "حتى إذا بلغ النشاط العلمي أعلى صعوده كانت عظمة الإمبراطورية في دور الهبوط"[٢٣].

ومن ناحية أخرى كان الوضع السلطة كلها في يد الخليفة يجعل بغداد المركز العلمي الوحيد أو على الأقل قبلة العلم والأدب وما عداه فاتر فكان من تفوق في علم أو أدب فلا أمل في شهرته ونبوغه إلا إذا رحل إلى بغداد وتقرب بعلمه وأدبه إلى خلفائها وأمرائها فلما استقلت الأقطار أصبحت كل عاصمة قطر مركزا هاما لحركة علمية وأدبية فأمراء القطر يعطون عطاء خلفاء بغداد ويحلون عاصمتهم بالعلماء والأدباء ويفاخرون أمراء الأقطار الأخرى في الثروة العلمية والأدبية كما يتفاخرون بعظمة الجند وعظمة المباني فبدل أن كان للعلم والأدب مركز واحد وهام أصبحت لهما مراكز متعددة وأصبح علماء مصر مثلا يساجلون علماء بغداد وأدباء الشام يفخرون على أدباء العراق وهذا من غير شك يشجع الحركة العلمية والأدبية[٢٤].

نرى الأمراء الأتراك الذين لا يحسنون العربية يحبون أن تزين قصورهم بالعلماء والأدباء ومن الطريف ما يحكى في ذلك أن بجكم التركي كان بواسط وكان من المقربين إليه أبو بكر محمد بن يحي الصولي وكان بجكم لا يحسن العربية فاستدعى يوما الصولي وقال له: إن أصحاب الأخبار رفعوا إلي أني لما طلبتك من المسجد وكان الصولي يقرأ دروسا في المسجد قال الناس أعجله الأمير و لم يتم مجلسنا أفتراه يقرأ عليه شعرا أو نحوا أو يسمع من الحديث يقولون ذلك كما بجكم لأنه لا يحسن العربية ثم قال بجكم ردا على هذا: أن إنسان وإن كنت لا أحسن العلوم

---

[٢٣] ديبور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، بيروت: دار الكتاب العربي، ص١٠.

[٢٤] ظهر الإسلام،ص٩٤.

والأدب أحب أن لا يكون في الأرض أديب ولا عالم ولا رأس في السماعة إلا في كان في جنبي وتحت اصطناعي وبين يدي لا يفارقني [٢٥].

يقول المرحوم أحمد أمين: أن الحالة العلمية لا تتبع الحالة السياسية ضعفا وقوة فقد تسوء الحالة السياسية إلا حد ما وتزهر بجانبها الحياة العلمية ذلك لأن الحياة السياسية إنما تحسن بتحقيق العدل ونشر الطمأنينة بين الناس ومع هذا فقد يحمل الظلم كثير من علماء الرجال وذوي العقول الراجحة أن يفروا من العمل السياسي إلى العمل العلمي لأنهم يجدون العمل السياسي يعرضهم لمصادرة أموالهم وأحيانا إلى إتلاف أرواحهم على حين أن العمل العلمي يحيطهم بجو خاص هادئ مطمئن وأيضا فقد استقر في نفوس الخلفاء والأمراء حرمة العلماء متى لم يتعرضوا للسياسة من قريب ولا من بعيد ولا شك أن هذا يمكنهم من بحثهم العلمي على رغم مما يحيط بهم من فوضى واضطراب.

أما من ناحية المذهبية وهي التي تهمنا هنا نجد أن سلطان المعتزلة بدأ يختفي في هذا العصر ويحتل مكانه المحدثين فنها المتوكل عن القول بخلق القرآن والجدل في الكلام وأظهر الميل إلى السنة ونصر أهلها ورفع المحنة عنهم وكتب بذلك إلى الأفاق في السنة ٢٣٤هـ وتبلور أعداء الناس للمعتزلة في أبي حسن الأشعري هذا الشيخ الذي ولد بعد متوكل بنحو اثنى عشرة سنة وتثقف بثقافة المعتزلة ثم عاداهم وأعلن الحرب عليهم [٢٦].

وكما خمدت أنفاس المعتزلة خمدت كذلك أنفاس الشيعة. أمر المتوكل بهدم قبر حسين بن علي وهدم ما حوله من المنازل وأن يمنع الناس من زيارة قبره [٢٧]. وكذلك اضطهاد اليهود والنصارى، أمر المتوكل بأخذ النصارى وأهل الذمة كلهم

---

[٢٥] نفس المرجع، ص٩٤.

[٢٦] ظهر الإسلام،٣٩-٩٦.

[٢٧] نفس المرجع،ص٤١.

بلبس الطيالسة العسلية والسنانير والركوب والسروج بركب الخشب مما منع أن يستعان بهم في الدواوين وأعمال السلطان التي تجري فيها أحكامهم على المسلمين وهكذا أثرت هذه الحركة في العلم بما كان يحمله النصارى واليهود والفرس والهنود من علوم آبائهم وأجدادهم فت تقدم هذه الذخائر إلى الأمة الإسلامية بلغة العربية كذلك أثرت في الدين من كثرة الجدل بين فقهاء[٢٨].

وقد عاصر الباقلاني في هذا الجو وتنقل بين البصرة وبغداد وشيراز، فإني أرى من الوفاء بحق الباقلاني أن أذكر من ٩هذه المراكز العلمية:

أولا: البصرة وفيها ولد القاضي الباقلاني وهي مدينة أسست في خلافة عمر بن الخطاب وعرف أهلها منذ فجر تاريخها بالتجارة فهيئ لهم ذلك اتصال مع غيرهم من الأجناس الأجنبية الأمر الذي جعلهم الأكثر تسامحا مع غيرهم[٢٩].

ثانيا: بغداد وفيها تعلم الباقلاني وتلقى العلم على عدد من علمائها[٣٠]. وقد زار المقدسي بغداد وقال "بغداد لأهلها خصائص والطرافة والقرائح واللطافة هوائها رقيق وعلم دقيق وكل جيد بها وكل حسن فيها وكل قلب إليها وهي أشهر من أن توصف وأحسن من أن تنعت وأعلى من أن تمدح"[٣١].

ثالثا: شيراز وهي المدينة الثالثة التي ذهب إليها الباقلاني واستقر فيها أيام عضد الدولة ٣٢٤هـ- ٣٧٢هـ. وكان عضد الدولة الذي ذكرناه آنفا يجمع من مشاهير العلماء وكان يعمل لهم مجالس للمناظرة أحيانا[٣٢]. وكانت خراسان جنة

---

[٢٨] نفس المرجع،٨٨.

[٢٩] متز، الحضارة الإسلامية، ص ٣٠٢.

[٣٠] دائرة السفير المعارف الإسلامية، بيروت: دار صادر، ص٥٨.

[٣١] المقدسي، شمس الدين، أحسن التقاسيم، بيروت: دار الفكر العربي، ص ٢٦٠.

[٣٢] أبو بكر الباقلاني، التمهيد، ص ٢٠٨

العلماء وكانوا يتمتعون بجاه واحترام لا نظير لها في سائر البلاد من أمثلة ذلك أن أحد العلماء الزهاد دخل خرسان فخرج أهلها بنسائهم وأولادهم ويمسحون أردانه ويأخذون تراب نعليه ويستشفعون به[٣٣].

ج – الحالة الاجتماعية

كان من نتائج التوسع الإسلامي خارج الجزيرة العربية ودخول كثير من الشعوب البلاد المفتوحة في الإسلام واختلاط العرب بأجناس مختلفة تتباين في لغاتها وتختلف في عاداتها وثقافاتها هذه الشعوب التي دخلت في حكم الإسلام كرها فهي تعيش معهم وقلوبها عليها كل هذا أدى إلى ضعف ملك خلفاء العباسيين حتى أصبح لهم الاسم ولغيرهم الحكم والسلطان[٣٤]. ونشأ عن هذه الحالة الاجتماعية مظاهر متعددة ترف لا حد له في بيوت الخلفاء والأمراء وذوي المناصب وفقر لا حد له في عامة الشعب والعلماء والأدباء الذين لم يتصلوا بالأغنياء ثم المظاهر التي تنتج عادة من الإفراط في الترف كالتفنن في اللذائذ والاستهتار والنعومة وفساد النفس وكل المظاهر التي تنشأ عن الفقر كالحسد والحقد والكذب والخديعة[٣٥].

كثر الرقيق في هذا العصر كثرة بالغة وامتلأت القصور به وكان له أثر كبير في الحياة الاجتماعية فكثر نسل الجواري واختلطت الدماء حتى الخلفاء أنفسهم كانوا في هذا العصر من نسل السراري.

وكانت الحياة المالية مضطربة أشد الاضطراب، فمع سوء التوزيع والاختلاف الشديد بين درجة الغنى والفقر والترف نرى عدم الطمأنينة على المال

---

[٣٣] الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، لأدم متز،ج١،ص٣٠٣.

[٣٤] ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، بيروت: دار صادر، ج١، ص٤٣١.

[٣٥] أبي حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، بيروت: مكتبة الحياة، ج١،ص٣١.

وذلك بسبب شهوات الحكام وطمعهم فيما أيدي الناس فكثرت مصادرات الأموال فالوزير إذا عزل صادر أمواله من يخلفه وهكذا[٣٦].

وإذا كانت الضرائب التي تجبى من الأقطار الإسلامية الشاسعة تنصب كلها في بغداد وفي المدائن التي حلت محل بغداد فإنه يمكن أن نتصور البذخ الذي عاشت فيه الدولة العباسية في هذه الفترة من حياتها. يقول أبا الحيان التوحيدي أحد أعلام هذا العصر : "ولو ذكر الطرب من المستمعين والأغاني من الرجال والصبيان والحرائر والجواري لطال الحديث وآمل وزاحمت كل من صنف كتابا في الأغاني والألحان وعهدي بهذا الحديث سنة ٣٦٠هـ وقد أحصينا ونحن جماعة في الكرخ أربعمائة وستين جارية في الجانبين ومائة وعشرين حرة وخمسة وتسعين من الصبيان البدور يجمعون بين الحذق والحسن والظرف والعشرة هذا سوى من كنا لا نظفر به ولا نصل إليه لعزته وحرصه ورقبائه وسوى من كنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء وبالضرب إلا إذا نشط في وقت أو ثمل في حال وخلع العذراء في هوى من قد خالفه وأضناه وترنم بأوقع من هز رأسه وصعد أنفاسه وأطرب جلاسه واستكتمهم حاله وكشف عندهم حجابه وأدعى الثقة بهم والاستنابة إلى حفاظهم[٣٧].

وكان هذا الترف والبذخ المفرط حظ عدد قليل هم الأمراء والخلفاء وذوي المناصب على أنه كان إلى جانب هذا الترف بؤس من ناحية أخرى. فقد مس الفقر فريقا من الشعب على حساب متاع ذلك الفريق[٣٨]. وهذا أبو سليمان المنطقي أعل عقلاء بغداد وأوسعهم نظرا وأعمقهم فكرا وكان فقيرا، يقول أبو التوحيد وهو من تلاميذه: "إن حاجته ماسة إلى رغيف وحوله وقوته قد عجزا عن أجرة مسكنه ووجبة غدائه وعشائه"[٣٩]. وليس أبو سليمان وحده في ذلك الحال وإنما كثيرون

---

[٣٦] ظهر الإسلام،ص١٢٢،مصدر سابق.

[٣٧] الإمتاع والمؤانسة،ج١، ١٨٣.

[٣٨] الامتاع والمؤانسة،ج١،ص١٣٠.

[٣٩] ظهر الإسلام،ج١،ص١١٧.

وهذا أبو علي القالي البغدادي ضاقت به الدنيا قبل أن يرحل إلى الأندلس حتى اضطر أن يبيع بعض كتبه[٤٠]. وكذلك أبو بكر القومس تحمله شدة الفاقة وسوء الحالة. يقول هذا الفيلسوف: "ما ظننت أن الدنيا ونكدها تبلغ من إنسان ما بلغت من إن قصدت دجلة لأغتسل نضب ماؤه وإن خرجت إلى القفار لأتيمم بالصعيد عاد صلدا أملس". وهكذا التوازن الإجتماعي في هذا العصر مختلا كما ذكرنا سابقا، ترف لا حد له في بيوت الخلفاء والأمراء وذوي المناصب، وفقر لا حد له في عامة الشعب.

[٤٠] الإمتاع، ج١، ص١٣٠.